الخطـــاب النقـــدي العـــربي
من النقد إلى نقد النقد

الأستاذ، محمد مكـاكي
- جامعة البليدة -

يمكن مبدئيا أن نطلق مصطلح نقد النقد على كل كتابة تجعل من النقد الأدبي موضوعا لها،وهذا في نظرنا أبسط وأعم تعريف يمكن أن يعطى كمفهوم لهذا المصطلح ولكن ذلك سيفتح أمام المهتمين بالنقد الأدبي ومدارسته إشكالات عديدة تنجم عند محاولة التأريخ لمثل هذا المراس .

محاولة البحث عن الصور الأولى التي تشكل جذورا لهذا النشاط النقدي، تجبر الباحث على تتبع سلوكه المعرفي عبر كل الثقافات الإنسانية، القديمة منها والحديثة، بحكم أن ظاهرة التعليق أو ربما التعقيب على الآراء والأحكام النقدية من باب التأييد أو المعارضة،نشاط لا بد وأن يكون ماثلا في أي ثقافة عرفت الأدب والنقد، ولذلك سيجد الدارس أن عليه الوقوف على تلك الدراسات التي وضعها أصحابها كتأريخ للتوجهات أو المدارس التي عرفها النقد في بيئة معينة، أو عند ناقد بعينه وهنا نجد أنفسنا أمام أولى إشكالات هذا التوجه الفكري، وهي إشكالية التفريق بينه وبين ما يمكن أن نعتبره تأريخا للنقد.

والواقع أن هذه الإشكالية طرحت نفسها بشكل أكثر حدة عندما تعلق الأمر بالحديث عن التفريق بين النقد الأدبي وتاريخ الأدب، وانتهى المطاف بأن أصبح المنهج التاريخي اللانسوني أحد المناهج التي فرضت نفسها على النقد الأدبي.

وعندما تعاود هذه الإشكالية الظهور على مستوى آخر هو نقد النقد الأدبي، فسيكون لزاما- في تمثلنا على الأقل- أن نفكر في الفصل فيها انطلاقا من إثارة مسألية التعامل مع النتاج النقدي مثلما كانت أسئلة المنهج تطرح نفسها بإلحاح على مستوى التعامل مع النتاج الإبداعي.

مسألة التعامل مع قضية المنهج في نقد النقد تأخذ صبغة تبدو أقل خطرا من سابقاتها، بالنظر إلى طبيعة الأدب التي تنأى عن أي تعريف مهما كان دقيقا، ولا أدل على هذا من كثرة التنظيرات التي أحاطت به منذ القدم، أما نقد النقد فموضوعه الذي هو النقد الأدبي يقوم على أسس معرفية، تعطيه ماهيته وتوجه نظرته ومراده من الإبداع، وهو الشيء الذي يحصر مهمة ناقد النقد في مساحة محددة هي مدى توفيق الناقد في الالتزام بالمبادئ التي انطلق منها نظريا على مستوى التعامل أو المراس النقدي[1]، غير أن هذه الآلية لا يمكن أن

تطبق عندما يتعلق الأمر بالتنظير للنقد، لأن المدار هنا على نقد الأفكار النقدية لا على تطبيقاتها على النصوص الإبداعية.

من خلال هذه الإشارات يتضح أن عملية نقد النقد تأخذ مستويات مختلفة ناجمة عن اختلاف مستويات العملية النقدية، التي يمكن أن نميز فيها مستوى النظرية المسؤولة عن توجيه السلوك النقدي إلى منحى معين تبرره قناعات فكرية وحضارية، ولدينا أيضا مستوى المنهج الذي يمكن أن نعطيه تسمية المستوى التطبيقي، أما المستوى الثالث فيتعلق بالمصطلح، وتتأسس مشروعية نقد المصطلح إذا تعلق الأمر بالواقع النقدي العربي.

السؤال الذي تحاول الإجابة عنه هذه الأسطر،متعلق بالصور التي حكمت التعامل النقدي مع راهن النقد العربي،من خلال بعض النماذج التي كانت سباقة إلى تبني مثل هذا السلوك المعرفي، مع تحديد زمني لما تقصده هذه الدراسة بنقد النقد، من حيث اقتصارها في ذلك على نقد النقد الذي ظهر بظهور المناهج النصانية.

ذلك لأن بعض الدارسين حاولوا الحديث عن نقد النقد بالعودة به إلى النقد العربي القديم، مثلما فعل الدكتور "مرتاض" في دراسته لتجربة نقد النقد عند القاضي الجرجاني وطه حسين[2]، وهو صنيع كنا وجدناه أيضا عند بعض النقاد الآخرين[3].

ونرى أن الحديث عن نقد النقد الأدبي قبل ظهور المناهج،حديث عن تعليقات ومواقف نقدية كان النقاد يتخذونها من نقاد آخرين، ومحاولة نقد نقد غير مؤسس على قاعدة معرفية واضحة لا يعدو أن يكون هو الآخر إلا هدرا للجهد، ومضيعة للوقت لغياب الأساس المعياري الذي يحتكم إليه في تحديد مواطن القصور أو الإجادة.

ويعتقد بعض الباحثين أن أول ظهور لهذا المصطلح كان عبر الترجمة التي وضعها الناقد اللبناني "سامي سويدان" لكتاب البلغاري تزفيتان تودوروف " critique de la critique "سنة 1986،أي أنه الترجمة الحرفية لهذا المصطلح الذي اختص به تودوروف دون سائر النقاد الأوربيين الذين يشيع في استعمالاتهم مصطلح "méta-critique" عندما يقصدون تلك الكتابة أواللغة التي تساق عادة بغية دراسة النتاج النقدي أو بعبارة أخرى كل كتابة نقدية اتخذت من الأعمال النقدية موضوعا لها[4].

غير أن الحقيقة غير ذلك، إذ وجدنا أن المصطلح ظهر قبل ذلك، ودون أن تكون له علاقة بكتاب تودوروف، وهذا عند الناقد السوري نبيل سليمان في كتابه* مساهمة في نقد النقد الأدبي، الذي حاول من خلاله تتبع مسيرة بعض التجارب النقدية في سوريا وبعض الأقطار العربية، داعيا من خلاله إلى ضرورة التأسيس لمثل هذه المنهجيات الدراسية لرصد الانجازات المحققة، على صعيد العملية النقدية العربية، خاصة بعد نزوعها نحو مناهج الحداثة[5].

وتحيل السابقة الأجنبية méta في المعاجم الفرنسية إلى معاني متعددة منها" الماوراء،والتجاوز والأفضلية والاحتواء والفوقية...[6]،وإضافتها إلى كلمة معين يضفي عليهما مجتمعتين إحدى هذه الدلالات وليست كلها بالضرورة فمصطلح métaphysique مثلا، ترجمه

علماؤنا الأقدمون بـ"ماوراء الطبيعة" لأن دلالته في أصل وضع ذلك المصطلح تفيد ذلك،بينما تحمل إضافته إلى مصطلح النقد دلالة أخرى قد تقترب من مفهوم الفوقية أو التجاوز،بحكم أن النقد بصفته لغة ثانية كتابة فوق الكتابة كما يرى "بارت"، وكذلك نقد النقد الذي يمكن القول بأنه كتابة فوق الكتابة فوق الكتابة ،أي كتابة من الدرجة الثالثة.[7]

يفتتح "نبيل سليمان" كتابه هذا بمقدمة ينطلق فيها من أن..النقد ونقده أيضا يحتلان مكانة هامة في سياق تحقيق النقلات، والإضافات على تاريخ الفكر. ومعاينة واقعنا الأدبي والنقدي تشير بقوة إلى تحقيق قدر مهم من التراكم، ولكنها تشير أيضا إلى تلك الثغرة المتمثلة في ضعف نقد النقد...[8].

ولذلك كان كتابه هذا ..بمثابة مدخل لتأريخ جديد لهذا النقد[9]،يرجو من خلاله أن يتمكن في المستقبل من انجاز بعض خطواته، كما يدعو سائر المهتمين إلى المساهمة فيه فهو مشروع جماعي ومفتوح على حد تعبيره[10].

تراءى للباحث –في هذه المرحلة المبكرة – من تاريخ النقد العربي المعاصر أن يحسم الاتجاهات المسيطرة على المشهد النقدي العربي في ثلاثة، الشكلانية والماركسية والانتقائية، وكل منها يحوي تنويعات شكلت فصول هذه الدراسة، حاول الباحث أن يدارسها من خلال بعض النقاد البارزين في كل توجه فأدونيس وكمال ابوديب وخالدة سعيد وخلدون الشمعة شكلانيون، وعدنان بن دريل ومحي الدين صبحي وإسماعيل صدقي وحنا عبود انتقائيون، أما طرابيشي ومحمد الخطيب وإحسان سركيس فانه يدرسهم بصفتهم ماركسيين، وأخيرا يخصص جزء من البحث لذلك ..اللون السلفي المستبد في النقد الذي يقدمه الإطار الجامعي!!![11].

ودون تحديد أي سبل منهجية للتعامل مع مادته، ينطلق الباحث في نقده لنقد أدونيس في الفصل الأول، ولأن أدونيس كان منظّرا أكثر منه مطبّقا فقد راح الناقد يناقش أطروحاته من منظور يتشكل من رؤية فكرية بحتة تحاول رصد التعامل بين المثقف المحلي في تكونه كمستغرب[*] ، والزاوية الاستشراقية التي ينظر بها إلى مجتمعه أي إلى نفسه[12].

ولذلك فالمعطى الأولي للدراسة أنها تنهض فيما تنهض عليه على المستوى التنظيري للنقد، وهو أحد المجالات التي تدخل تحت اهتمامات ناقد النقد كما كنا أشرنا إلى ذلك في مدخل هذه الدراسة.

وعلى شاكلة مؤلفينا الأقدمين –وفي سياق حديثه عن الحداثة- يضع الباحث عنوانا فرعيا يسميه حاشية[13]، ينتقل فيه للحديث عن الحداثة عند ناقد عربي آخر هو أنطوان مقدسي، ما شفع له عند الباحث في هذه الوقفة، أنه استطاع أن يرفع مسالة الحداثة إلى مستوى نظري وأعطاها مسحة فلسفية[14].

يبدو الوعي المصطلحي الألسني ضعيفا عند الناقد، إذ نجده يمارس نقده على أبي ديب، دون توغل في الخلفية النظرية والإجرائية للمنهج البنيوي، وهو الأمر الذي يجعل من

مهمته صعبة نوعا ما، إذ يفترض بناقد الشيء أن يكون أعلم من المنقود، ولعل ذلك ما شكل لديه نظرة سلبية إلى التعالي الذي يدخل به أبو ديب تجاربه البنيوية، ولنستمع له معلقا على أحد دعاوي أبي ديب:

..يسوق الناقد بعض الاعتراضات على النقد الأوربي المعاصر، ويسعى أحيانا للتأسيس على الجرجاني، في محاولة للتمويه وإضفاء نوع من الأصالة والذاتية على المنهج الجاهز الذي يورده إلينا من الخارج ..ويضيف..إن البنيوية في مشروع الناقد صورة فذة لما لاحظه" غارودي" من انحطاط المنهج البنيوي عبر محاولة طرح البنيوية كايدولوجيا، وبالتالي تقديم البنيوية كفلسفة لموت الإنسان..[15].

هذا الموقف الذي يقفه الباحث معاد للبنيوية برمتها، أي كمنهج وافد كان معتمدا سلفا، مما يجعل النتائج التي قد يتوصل إليها البحث مصادرة على المطلوب برأي حميد لحمداني[16]، كما أنه يخرج بناقد النقد عن الإطار المحدد له علميا، لان المساحة التي يتحرك فيها ناقد النقد تتراوح بين المبادئ النظرية لموضوعه وبين المراس التطبيقي، بغية رصد مدى توفيق الناقد في اختياره من جهة و مدى التزامه بالمبادئ والمنطلقات التي طوق بها دراسته، وهذا من جهة ثانية.

والموقف نفسه يقفه الباحث من ناقد سوري آخر هو" خلدون الشمعة" الذي يدرس استفادته من مفاهيم النقد الجديد[**]، مثلما ظهرت عند النقاد الأنجلوساكسونيون، محاولا التأسيس لوعي نقدي جديد في حماس ترويجي للوافد واحتقار للماضي النقدي العربي،أثارا حفيظة الباحث، وأخذاه لتتبع العثرات التي تعج بها دراسات الشمعة، ووجد أنه:.ينبغي علينا أن نوطن أنفسنا مع الشمعة على أكثر مما لدى أدونيس(كذا)،من تناقض من فقدان الرقابة الذاتية..[17].. في إشارة منه إلى أن اجتهادات خلدون الشمعة لم تكن إلا رجع صدى لما نظر له أدونيس، وذلك ما يعبر عنه بقوله..إن النتاج النقدي لخلدون الشمعة لم يكن إلا أدونيسية مصغرة، ولكن دون أن يكون للصورة المصغرة اتساق الصورة الكبرى، إذ غالبا ما يتجلى هنا الأثر التشويهي للتصغير، ومن هنا فان خالدة سعيد وكمال أبي ديب يتقدمان بما لايقاس على خلدون الشمعة...[18].

هذا الحكم القاسي من الباحث ومفاضلته بين النقاد يذكرنا ببدايات النقد الأدبي العربي في العصر الجاهلي، أين كان النابغة يتبوأ مكانة القاضي الذي لا يناقش في قضايا الشعرية فيرفع هذا ويدني ذلك دون إبداء أية أدلة قام عليها اختياره، وقد شكلت هذه المسألة نقطة خلاف كبيرة، على مستوى العملية النقدية على مر العصور، فهل ستعاود طرح نفسها في ثنايا هذا المسلك المعرفي الجديد؟.

وعموما يمكن القول بأن هذا الكتاب كان محاولة جادة لقراءة النتاج النقدي العربي على الرغم من محدودية المخزون الفكري الحداثي، وغياب منهجية واضحة يتبعها في عملية القراءة،مما جعله يعج بالمواقف العدائية غير المبررة أحيانا، وهي المواقف التي لم تكن

وليدة قراءة داخلية بقدر ماكانت محكومة بتحيز غير معلن،وعداء للوافد بحث له الناقد عن أدلة من خلال الأعمال المدروسة.

ومن الدراسات المتميزة في ميدان"نقد النقد" نشير إلى دراسة المغربي حميد الحمداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، وهي دراسة كانت على وعي كبير بالمنظومة المعرفية والاصطلاحية للنقد الأدبي الحداثي، وجهها الناقد لدراسة الأعمال التي قاربت النص السردي بنيويا، ووجه التميز فيها أن الباحث ينطلق فيها توضح هدفه منها وتبرر توجهه، وتحدد منهجيته في دراسته لموضوعه، دون أن تكون هذه المنهجية باختيار مسبق، ويشير إلى أن الجانب التطبيقي فيها طرح عليه إشكالا كبيرا..فيما يخص المنهج الذي يجب على ناقد النقد وهو يحلل أعمالا نقدية حول الإبداع،اتباعه...[19].

يحدد الحمداني منهجيته في الجانب التطبيقي من الكتاب كالتالي:..آثرنا أن تكون الدراسة ذات طابع وصفي، فهي لا تقف مع البنائية (ولنلاحظ أن الباحث يترجم مصطلح structuralisme بالبنائية) ولا ضدها،ولكنها تتلمس عبر نظريتها وممارستها تحديد قيمتها المنهاجية، وفعاليتها الإجرائية..[20].

وفرضت عليه حاجته لأدوات إجرائية وصفية الاستفادة ..من بعض الدراسات المنجزة في نقد النقد، وخاصة ما قامت به الكاتبة"جوهانا ناتالي" في مجال تحليلها للأعمال المكتوبة حول قصص بودلير، فما هو مهم في دراستها هو تلك التحديدات النظرية والأدوات الإجرائية التي مكنتها من تقديم رؤية تفصيلية ودقيقة لمسار الممارسة النقدية التي تتلخص في التساؤل عن: الأهداف- المتن – الممارسة النقدية –بحصر المعنى بما فيها: الوصف – التنظيم – التأويل – اختبار الصحة...[21].

ولان الباحثة أهملت عنصرا رآه الحمداني مهما، فقد زاد عليها عنصر التقويم الجمالي،لأنه لا يفترض أن المحلل البنيوي سيلتزم دوما بالحياد الذي يمنعه من إصدار أحكام القيمة على الإبداع الأدبي[22].

بعد مدخل نظري يتطرق فيه الباحث بدقة كبيرة وتبسيط جميل إلى أشهر النماذج النقدية في السرديات البنيوية، يلج باب الممارسة التطبيقية وفق قسمين عالج في أولهما بعض الدراسات العربية التي نظرت للمنهج البنيوي، كدراسة موريس أبو ناضر" الألسنية والنقد الأدبي" الذي يدارسه دراسة منهجية يتضح فيها وفاؤه للخطوات التي ذكرها سابقا، حيث يقارن بين ماجاء في المتن المدروس من المفاهيم الخاصة بالبنيوية مع المصادر الأصلية لها، مثلما فعل مع توظيف أبي ناضر لأدوات الشكلاني فلاديمير بروب، واتضح له أنه لم يهضم المصطلحات التي أتى بها بروب، زيادة عن كونه حذف بعض العناصر من البناء الوظائفي دون التنبيه إلى ذلك.....[23].

وفي حديثه عن كتاب الدكتورة نبيلة إبراهيم: نقد الرواية، من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة، يعرض الباحث إلى منهجها فيه والخطوات التي اتبعتها، وكذا المغالطات المصطلحية التي ارتكبتها، بالنظر إلى المرحلة المبكرة التي صدر فيها عملها، كما يلقي

الضوء على المناهج التي وظفتها الناقدة والأطروحات البنيوية التي أفادت منها، ونعى عليها عدم اعتمادها على المصادر الأصلية لها[24].

وما يلفت النظر في الدراسة أن الحمداني أشار في أكثر من موقع فيها إلى مزاوجة الناقدة بين المنهجين البنيوي والماركسي، واصفا ذلك بالارتباك المنهجي[25]، دون أن يكتشف أن ذلك المنهج المركب هو البنيوية التكوينية التي أسس لها غولدمان[*](❖)، لذلك وجدنا الحمداني يعيب عليها تناقضها في الأخذ بمبدأين في النظر إلى طبيعة العمل الأدبي، يقول:..لعل مرد هذا الارتباك المنهجي راجع – في نظرنا – إلى أن الكاتبة غير قادرة على التخلص من فكرة علاقة النص الأدبي بالواقع الاجتماعي، وهو ما يعد بالنسبة لأي ناقد متخصص وقوعا في تناقض واضح في عرف المنهج البنيوي...[26].

وبالرغم من هذه الملاحظة التي سجلناها على الباحث، فان هذه الدراسة كانت من أجل الدراسات في ميدانها بما أبدته من تعامل رصين مع مادتها، ساعدتها في ذلك إلمام الباحث بالمعارف الحداثية، وإتقانه اللغة الفرنسية التي تعد لغة المناهج الحداثية كلها، كما يمكن القول أنها الوحيدة من الدراسات التي حاولت التأسيس لخطوات منهجية علمية يعتمدها الباحثون لنقد النقد، سيما وأنها من الوضوح بمكان يمكن لأي دارس الأخذ بها.

نقول ذلك لان أغلب الباحثين الذين تعاملوا مع الأعمال النقدية كانوا ينطلقون دون إثارة أية إشكاليات قد تعترض أهدافهم فيه، وكأن هذا الميدان مما صار له مناهجه التي لا تخفى على المشتغلين به، في وقت لايزال فيه في سني حياته الأولى في التربة النقدية العربية.

وللقارئ أن يتأكد من ذلك بالعودة إلى المؤلفات التي اتخذت من التجربة النقدية العربية مدارا لتعاطي نقد النقد كالأدبي، وهي المؤلفات التي اطلعنا على بعضها ومنعنا من إثباتها هنا ضيق مساحة هذا المقال عما يستلزمه موضوع بكر كهذا، وسنحاول الإشارة السريعة إلى أهم الدراسات التي كان لها الأثر في الدراسات النقدية العربية وذلك قبل الانتقال للحديث عن واقع نقد النقد الأدبي في الجزائر.

ويمكن الإشارة في هذا السياق إلى كتابي الدكتور عبد العزيز حمودة المرايا المحدبة، والمرايا المقعرة[27]، اللذين ضمنهما نقدا جارحا للحداثة بما أفرزته من مناهج، محاولا التأسيس لنظرية نقدية عربية، ولا يجب إغفال الدور الفعال الذي يضطلع بتأديته الدكتور سعد البازعي من خلال دراساته المحكمة حول الخطاب النقدي العربي، ولعل أقمنها بالذكر دليله النقدي الذي ألفه مناصفة مع "ميجان الرويلي[28]"، وكذا كتابه القيم "استقبال الآخر –الغرب في النقد العربي الحديث - "[29].

ومن الدراسات التي حاولت تقصي الأعمال النقدية العربية أيضا، نشير إلى كتاب الدكتور محمد عزام المعنون بـ" تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحداثية – دراسة في نقد النقد- "[30]، ومما تجدر الإشارة إليه انطلاق التأليف في ما يمكن أن يسمى نقد نقد النقد أو الكتابة من الدرجة الثالثة، وهو ما صرح بتبنيه الناقد السوري عبد الله أبوهيف في

كتابه: النقد الأدبي العربي الجديد[31] ، وهو الكتاب الذي تتبع فيه الناقد نقاد النقد، ولكن في صورة لاترقى إلى مواصفات البحث العلمي، لغياب الدقة والصرامة في تسجيل الآراء والأحكام.

إن ما يبدو للقارئ أن الكاتب لم يكلف نفسه عناء قراءة المادة المدروسة بالتأني الذي يضمن له إطلاق الأحكام أثناء التصنيف والتحليل، ولنأخذ لضيق المساحة مثالا واحد واحدا كفيلا بالإبانة عن مرادنا.

في معرض حديثه عن حميد لحمداني، وفي إشارة سريعة يقرر أبوهيف ما يلي:

...خصص حميد لحمداني (المغرب) جهداً أكبر لنقد الاتجاهات النقدية الحديثة في كتابيه «النقد الروائي والأيديولوجيا من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي» و«بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي»، ومما يجدر ذكره أن لحمداني يناقش قضية نقدية أو أدبية، فليس دأبه هو تتبع الأعمال النقدية، ولذلك لا تعدّ كتبه ضمن نقد النقد، وإن تعرضت لهذه الاهتمامات النقدية في سياق معالجتها لهذه القضية النقدية أو الأدبية أو تلك...[32]

وللقارئ أن يقارن بين هذا القول وما كنا جئناه أثناء حديثنا عن لحمداني، وله أيضا أن يعود إلى الكتابين ويستجلي بنفسه المزالق التي قد يؤدي إليها البناء على آراء أبي هيف.

ومما يؤسف له – ولغياب الوعي المنهجي اللازم لمثل هذه الدراسات – نجد باحثا آخر هو الدكتور العراقي فاضل ثامر يقدم للقراء كتابه المعنون باللغة الثانية، وهو الكتاب الذي ضمنه بعض المقاربات في إطار نقد النقد، لكنها لم تسلم من الزلل الذي يلاحق الكثير من الدارسين، ربما لغياب جانب الدقة وتوخي الصرامة في التعامل مع النصوص قراءة وتعليقا.

إذ نجده يتناول بالنقد كتاب بنية الخطاب الشعري للناقد الجزائري عبد الملك مرتاض، وحين أشكل عليه مصطلح التشريح الذي اصطنعه الدكتور "مرتاض" وصف الدراسة بأنها «لا تنتمي إلى منهجية القراءة التشريحية أو التفكيكية، بل تزاوج بين القراءتين البنيوية و التقليدية ... »[33].

وواضح أن الناقد "فاضر ثامر" يخلط بين التشريحية التي يستعملها الدكتور "عبد الله الغذامي" كمقابل المصطلح déconstruction منذ أن أصدر كتابه "الخطيئة والتفكير" سنة 1985 وبين التشريحية التي يستعملها الدكتور "مرتاض" كمقابل للدراسة و التحليل، من قبل ظهور كتاب الغذامي.

والظاهر أن "فاضل ثامر" غاب عنه أيضا أن الدكتور "مرتاض" يترجم مصطلح déconstruction بالتقويض و يدعو إلى تبنيه[34]، و بالتالي فلا علاقة بين الـ déconstruction و التشريح عند "عبد الملك مرتاض" و قد أشار في بعض دراساته المتأخرة إلى أن مقصده منه يختلف عن مقصد الدكتور "عبد الله الغذامي"[35].

ومن أجل ذلك كان لزاما على ناقد النقد الإحاطة بتفاصيل النتاج النقدي المدروس، ودراساته في سياقه الشامل لان الاقتصار على العينات المفصولة عن سياقاتها المعرفية، قد يجر بالباحث إلى الكثير من المغالطات التي تمس بموضوعية البحث العلمي .

في نقد النقد الجزائري:

بعد هذه الجولة النقدية التي عقدناها على تخوم خارطة نقد النقد العربي، ألا يحق لنا أن نتساءل عن نصيب النقد الأدبي الجزائري من هذه التطورات والتوجهات المعرفية، وعن الأعلام الذين يمكن اعتبارهم أعمدة نقد النقد الجزائري؟

بينت لنا قراءتنا للنتاج النقدي الجزائري أن الدراسات التي نهض مسعاها على الإحاطة بتفاصيل الخطاب النقدي الجزائري لا تتعدى أصابع اليد، وذلك إذا استثنينا الدراسات الجامعية التي قصاراها الظفر بشهادة جامعية، وعلى قلة هذه الدراسات فإنها لم تكن من المنهجية بالشيء الذي يؤلها للانتماء إلى الدراسات النقدية الوجهة إلى النقد،ذلك أنها كانت تقوم على تتبع وصفي ينشد التأريخ للنقد الجزائري، منتهجا نظرة وصفية تجميعية وتصنيفية، لا تعير اهتماما للتصويب أو التقويم.

ومعنى هذا أننا بصدد إعطاء توجهين لنقد النقد الجزائري يعنى أحدهما بالتتبع التاريخي للأعمال النقدية، غايته الجمع والتصنيف، في حين يشق التوجه الثاني سبيلا مغايرا نوعا ما، وذلك من حيث يروم التأسيس لمقاربة نقدية للأعمال النقدية الجزائرية مهمتها تتحدد أساسا في رصد مدى تمثل النقاد الجزائريين للمناهج الوافدة، من خلال المقارنة بين النظري والعملي،ومناقشة مسألة المصطلح (***).

والواقع أن عملية نقد النقد في الجزائر لازالت تخطو خطوا وئيدا، إذ لا نظفر بدارس كرّس جهده لمدارسة الإبداع النقدي الجزائري، وصرف إليه همته، وذلك إذا استثنينا الناقد الدكتور يوسف وغليسي الذي يمكن القول بأنه شكل طفرة في هذا النطاق، من حيث اختصاصه فيه من جهة، ومن حيث الكم الوفير للدراسات التي كتبها جاهرة بالانتماء إليه من جهة ثانية، بالإضافة إلى الحصافة النقدية والموسوعية النظرية التي تتميز بهما دراساته.

قدم الباحث للنقد مجموعة من الدراسات النقدية للخطابين النقديين العربي المعاصر سنصطفي منها دراسة واحدة نعرضها للقارئ، نظرا لضيق المجال ونحيل على البقية في الهامش لزيادة الاطلاع، والدراسة التي وقع عليها اختيارنا هي كتابه المعنون بالنقد الجزائري المعاصر – من اللانسونية إلى الألسنية - ، وهو قراءة للناتج النقدي الجزائري منذ الاستقلال إلى اليوم، برؤية تراعي مستويي العملية النقدية : المنهج والمصطلح.

يقدم الباحث للدراسة بقوله.. تقدم هذه الدراسة مسحا شاملا لما يربو على ثلاثين سنة من الممارسة النقدية الجزائرية في حقل الكتابة النقدية، يقوم خصوصا على تتبع التحولات المنهجية والاصطلاحية في مجرى التطور النقدي الجزائري،...(36).

ما تجدر الإشارة إليه في مستهل هذه الدراسة الموقف الصارم الذي يتخذه الدكتور وغليسي من مسألة المنهج، وهو موقف جدير بالإكبار والتثمين، ووجه ذلك أن الباحث يتعامل مع مسألة المنهج بصرامة علمية قلما تتوافر عند غيره من الباحثين، ولأجل ذلك وجدناه يخصص جهدا مضنيا لضبط مفهوم المنهج كمصطلح علمي يختلف عن غيره من المصطلحات

التي تقع على محيطه الدلالي كالطريقة والتيار والاتجاه والنظرية والمدرسة والمذهب، بعدما تراءى له أن عامة النقاد والدارسين يتعاطونها مترادفة ترادفا مخلا[37].

فالمنهج عند الدكتور وغليسي.نسق من الرؤى والتقنيات الإجرائية، مستمد من رؤية انطولوجية إلى الحياة وبالتالي إلى الأدب، ذات أفق شمولي ممتد يسع الجنس الأدبي وما فيه من نصوص، والنص ومكوناته: دالا ومدلولا، ويستقل المنهج برؤيته الخاصة التي تميزه من منهج إلى آخر..[38].

وعلى هذا الأساس راح يحاور النصوص النقدية الجزائرية، على اختلاف مناهجها وفق تقسيم ثنائي يقسم المادة النقدية الجزائرية باعتبار المناهج التي طغت عليها، مابين مناهج نصانية وأخرى سياقية، بحجة أن تحول المنهج النقدي من التركيز على محيط النص الخارجي (...)إلى التركيز على النص مجردا مما حوله(...)هو أكبر تحول في مسار العملية النقدية[39].

وبعد تحديد الأساسات التي يبني عليها بحثه يشرع الباحث في تقصي المناهج التي برزت على الساحة النقدية الجزائرية منذ التاريخانية الأولى على يد أبي القاسم سعد الله إلى السيميائية والتفكيكية، اللتين كان لهما أنصارهما في الواقع النقدي على شاكلة الدكتور مرتاض وعبد الحميد بورايو، والأسلوبية التي قصر فيها الحديث على بعض الدراسات بحجة انه ليس للأسلوبية في الخطاب النقدي الجزائري مقام يستأهل البحث في جوانبه والتنقيب في خصوصياته[40]، ومع ذكره لرائد النقد الأسلوبي في الجزائر الدكتور علي ملاحي، إلا أنه أغفل اسما آخر له وزنه في هذا المنهج هو الدكتور نور الدين السد[41]، الذي لانجد أي إشارة إليه في هذا العمل الموسوعي.

ومن القمين بالذكر والتنويه أيضا أن كثيرا من الملاحظات التي سجلها الدكتور وغليسي على بعض التجارب النقدية، كان لها صداها الايجابي عند أصحابها، ويمكننا التمثيل على ذلك بدراسته القيمة حول الدكتور مرتاض، الذي وجدناه كثيرا ما يزاور عن بعض الاصطلاحات التي نعاها عليه الأستاذ وغليسي، كانصرافه إلى تسمية المستوياتية التي يصطنعها في تشريح النصوص بالإجراء، بعدما كان ينعتها بالمنهج[42].

على أننا صادفنا الباحث نفسه – أي الدكتور وغليسي- يتخلى عن مبادئه الاصطلاحية النقدية في أخريات دراساته، وهي دراسته التي عنونها بمناهج النقد الأدبي المعاصر، وفيها وجدناه يخلع صفة المنهج على كل من السيميائية والأسلوبية[43] ، مع أنه كان – كما أشرنا – من أكثر المتشددين في مسألة الضبط المنهجي!!!

كانت هذه بعض الملاحظات التي سجلناها ونحن نقلب صفحات النقدين العربي والجزائري، مع ما نعلمه لها من البساطة والسطحية، إلا أننا نأمل أن تكون مقالة مفتاحية للولوج إلى هذا العالم المعرفي الذي لازالت أرضه المعرفية بكرا، في حاجة إلى التنقيب والتحليل بغية التأسيس لنظرة نقدية إلى النقد تروم إثراء الثقافة النقدية واغناءها.

الهوامش:

(1) هذا الإجراء المنهجي قامت عليه بعض الدراسات الغربية في نقد النقد الأدبي مثلما هو الحال في دراسة قدمتها الباحثة "جوهانا ناتالي" Johanna Natalie في معرض تحليلها للأعمال النقدية التي كتبت حول قطط بودلير.
ينظر: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي: حميد الحمداني، المركز الثقافي العربي، بيروت 1991، ص: 07.

(2) عبد الملك مرتاض: المرجع السابق، ص: 227- 243.

(3) نشير في هذا السياق إلى دراسة نشرها الناقد السعودي سعد بن سلطان القحطاني على شبكة الانترنت وتحدث فيها عن صور نقد النقد عند بعض النقاد العرب قديما، للاطلاع يرجى زيارة موقع الخيمة على الشبكة.

(4) عبد الملك مرتاض: في نظرية النقد، دار هومة، الجزائر 2002، ص:221.
يعتقد الدكتور مرتاض بأن العجمة البلغارية هي ما منع تودوروف من استعمال مصطلح méta critique، وعلى أننا لا نجد في كتابه أي إشارة لسبب ذلك إلا أن اغلب الظن يسير نحو الاعتقاد بأن اختيار تودوروف لمصطلح critique de la critique كان مقصودا، للدلالة المعيارية التي تحملها كلمة نقد، نقول ذلك لأن عملية نقد النقد كما تظهر ملامحها من خلال كتاب تودوروف هذا تتأسس مشروعيتها على المعيارية أكثر من الوصفية، وما يؤكد هذا إكثار تودوروف من إصدار مواقف المعارضة عبر فصول الكتاب .ينظر: تزفيتان تودوروف: نقد النقد، ترجمة سامي سويدان، مركز الإنماء القومي، بيروت 1986.

(5) نبيل سليمان: مساهمة في نقد النقد الأدبي، دار الطليعة، ط1، بيروت 1983.

(6) Dictionnaire hachette ; édition 2004

(7) R.barth : essais critiques ; seuil 1972, p : 213

(❖) من الأمثلة التي يمكن سوقها على الاتجاه الأول نشير إلى الدراسات التالية:
أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ط3، الجزائر1985.
عبد الله ركيبي: تطور النثر الجزائري الحديث، الجزائر1990.
ولنلاحظ هنا أن الباحثين وضعا النقد الأدبي كأحد الأجناس الأدبية التي درساها، وليس كفن قائم بذاته.
عمار بن زايد: النقد الأدبي الجزائري الحديث، الجزائر1990.
محمد مصايف : النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، الجزائر1979.
عبد الله بن قرين:النقد الأدبي الحديث في الجزائر، ماجستير، جامعة حلب1987.
أما التوجه الثاني فيمكن الإحالة فيه على الدراسات التالية:

شريبط أحمد شريبط: النص النقدي الجزائري من الانطباعية إلى التفكيكية، أعمال الملتقى الوطني الثاني، الأدب الجزائري في ميزان النقد، جامعة عنابة1994.
يوسف وغليسي:النقد الجزائري المعاصر:من اللانسونية إلى الألسنية، الجزائر2002.
يوسف وغليسي: الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، الجزائر، 2002.
وهذا بالإضافة إلى بعض الأسماء الأخرى التي لم نأت على ذكرها، ربما نظرا لمحدودية إنتاجهم النقدي في هذا النطاق.

(8) نبيل سليمان: المرجع السابق، ص: 05.

(9) نفسه.

(10) نفسه.

(11) نفسه: ص: 07.

(*) ما يقصده الباحث بقوله"مستغربٌ أن أدونيس من المثقفين العرب الذين تلقنوا معرفة غربية، وكان الأحرى به في نظرنا أن يستعمل مصطلح المتغرب، بدل المستغرب، لان هذا المصطلح صار يستعمل للتدليل على توجه معرفي نادى به بعض المفكرين العرب كمقابل للاستشراق، واستعماله في هذا السياق يوحي للقارئ بان أدونيس يمارس مهمة الاستغراب التي تقوم أساسا على جعل الغرب موضوعا للدراسة، لا بجعله مصدرا وحيدا للعلم والحضارة وهو مايقوم عليه فكر أدونيس وغيره من التغريبيين، للاطلاع يمكن العودة إلى:

- حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، بيروت1992.
- سعد البازعي وميجان الرويلي: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، ط3، المغرب 2002.

(12) نبيل سليمان: السابق،ص:10.

(13) نفسه: ص:45.

(14) نفسه: ص:45.

(15) نفسه: ص: 57.

(16) حميد لحمداني: المرجع السابق،ص:07.

(**) النقد الجديد: يقصد به ذلك النقد الذي ساد في إنجلترا وأمريكا قبيل ظهور البنيوية و تتوافق آراؤه كثيرا مع آراء النقد البنيوي و الشكلاني، خاصة
فيما يتعلق بقصر عناية النقد الأدبي بالنص الأدبي و إقصاء كل سياقاته تاريخية كانت أو اجتماعية أو غيرها، ينظر: دليل الناقد الأدبي، م س، ص:312.

(17) نبيل سليمان: السابق، ص:67.

(18) نفسه، ص:67.

(19) حميد لحمداني: مرجع سابق، ص:07.

(20) نفسه.

(21) نفسه.

(22) نفسه.

(23) نفسه، ص: 99.

(24) نفسه، ص: 116- 119.

(25) م س، ص: 118.

(*)صاغ غولدمان منهجه وفق مرحلتين أو خطوتين، هما الفهم والتفسير، فالفهم هو تمييز البنية الدالة في العمل الأدبي و يقوم ذلك على تحليل بنيوي خالص للعمل الأدبي، بحيث يتم فيه كمرحلة تحديد كل تفاصيل العمل الأدبي، والعلاقات التي يمكن أن تكون متحكمة في طريقة انتظامه على ذلك النحو المحدد.

أما التفسير فيمثل إدراج هذه البنية في البنية الاجتماعية، فيصبح عزل النص بذلك عزلا مؤقتا تمليه ضرورة الكشف عن تمفصلاته التي تحمل بداخلها رؤية خاصة للعالم يقوم الباحث بالكشف عنها في مرحلة لاحقة أي حين يعيد النص إلى سياقه الاجتماعي و يربطه بالصراع الطبقي الذي هو أساس التفسير من بنية إلى أخرى . يمكن العودة في هذا إلى:

- صلاح فضل،منهج الواقعية في الإبداع، دار المعارف، ط 2، القاهرة، 1980، ص:241.
- جمال شحيد: في البنيوية التكوينية، مجلة المعرفة،المجلد38، السنة17، ع225و226، 1980، ص:28.

(26) حميد لحمداني: السابق، ص: 118.

(27) صدر كلاهما ضمن سلسلة عالم المعرفة التي تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 1998/236 والعدد 2001/272.

(28) انظر المرجع المحال عليه برمز(❖❖).

(29) سعد البازعي: استقبال الآخر – الغرب في النقد العربي الحديث - ، المركز الثقافي العربي، ط1،بيروت/الدار البيضاء2004.

(30) صدر الكتاب عن اتحاد العرب، دمشق 2003.

(31) عبد الله أبو هيف: النقد العربي الجديد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق2000.

(32) م س، ص: 11.

(33) ثامر فاضل،"اللغة الثانية"، المركز الثقافي العربي، بيروت،1994،ص: 42.

(34) مرتاض عبد الملك، "في نظرية النقد"، دار هومة، الجزائر، 2002، ص:34.

(35) مرتاض عبد الملك،"نظرية القراءة"، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر2006، ص: 37.

(***)عالج الدكتور يوسف وغليسي إشكالية المصطلح في النقد العربي المعاصر في بحث قيم نال به درجة الدكتوراه من جامعة وهران، صدر عن منشورات الاختلاف مؤخرا.

(36) يوسف وغليسي: النقد الجزائري المعاصر، منشورات رابطة إبداع، الجزائر2002، ص: 11.

(37) نفسه.

(38) نفسه.

(39) نفسه: ص: 11- 12.

(40) نفسه، ص: 148.

(41) يمكننا أن نستجلي ملامح القراءة الأسلوبية عند الدكتور "نور الدين السد" عبر دراستيه "تحليل الخطاب الشعري، و "المكونات الشعرية في يائية مالك بن الريب"، بالإضافة إلى بحثه النظري المطول و الذي عنونه بـ"الأسلوبية و تحليل الخطاب"، والذي تعرض فيه بالتفصيل إلى مفهوم الأسلوب، و الأسلوبية واتجاهاتها وأعلامها، كما تطرق فيه أيضا إلى كثير من الدراسات العربية والجزائرية التي تبنت الأسلوبية في تحليل الخطاب الأدبي، انظر:

- مجلة اللغة و الأدب، معهد اللغة العربية و آدابها، جامعة الجزائر، ع9، 1999.
- نور الدين السد، "الأسلوبية و تحليل الخطاب"، دار هومة، دون طبعة، الجزائر، 1998.

(42) انظر مثلا: عبد الملك مرتاض، التحليل السيمائي للخطاب الشعري – تحليل سيمائي لقصيدة شناشيل ابنة الحلبي – منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق2005.

(43) يوسف وغليسي: مناهج النقد المعاصر، الجزائر 2008.